

العمل الحقل في البحث الأنثروبولوجي

(تحليل إبستمولوجي لتجربة ميدانية)

سليم درنوني - الجزائر

الملخص

تسعى هذه الورقة إلى تقديم قراءة إبستمولوجية نقدية لتجربة بحثية ميدانية خاضها الباحث أثناء إعدادة لمذكرة التخرج، في محاولة لردم الثغرة الموجودة في ثقافة البحث الميداني في جامعاتنا ومراكزنا البحثية، من خلال التركيز على مختلف مراحل التجربة البحثية بدءا من العمل على التعود مع الظروف الجديدة، وإقامة جسور الثقة بينه وبين أهالي المنطقة مرورا بالملاحظة بالمشاركة وتقنيات المقابلة والإخباريين وصولا إلى دور الباحث في مجتمع البحث.

كلمات مفتاحية: البحث الميداني، الملاحظة بالمشاركة، الإخباريون، المقابلة،

Résumé

Ce document vise à fournir une lecture et épistémologique et critique d'une expérience de recherche vécu par le chercheur durant sa préparation de sa thèse, et ceci dans une tentative de combler le fossé existant dans la recherche sur le terrain de la culture dans nos universités et nos centres de recherche, en se concentrant sur les différents étapes de la recherche allant du travail à s'habituer à de nouvelles conditions, et la création de des ponts de confiance avec les gens de la région, passant par l'observation participante et les techniques d'entretien, en terminant par le rôle du chercheur dans le milieu de la recherche

Mots-clés : Recherche de terrain, Observation participante, Informant, Entretien.

إن أحسن ما ينير الباحث المبتدئ في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويجنبه السقوط في الأحكام التعسفية أو في السذاجة العلمية هو التسلح، ليس فقط بالمنهجية العامة، وإنما بتقنيات البحث الميداني وأدوات التحكم في استعمالها. وتكمن المشكلة الأساسية في مجتمعاتنا في جهلنا بتقنيات البحث الميداني التي تعتبر أساس المنهجية في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

هناك ثغرة في ثقافة البحث الميداني شبه مفقودة في جامعاتنا ومراكز بحوثنا، إن واقعنا البحثي بأمس الحاجة إلى فهم عمليات المسح، وكيفية التعاطي مع الميدان الذي أظهره جون كوبون¹ وكأنه كائن يجب التعامل معه بموضوعية تارة، وبذاتية عاطفية تارة أخرى. الميدان شيء مركب فيه ما هو نفسي وما هو اجتماعي، فيه ما هو فلسفي وما هو تاريخي... إلخ. فهذه أبعاد تمس مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية منها الفلسفة والتاريخ وعلم النفس التحليلي واللسانيات وعلم الاجتماع... ومن أجل فهم الإنسان فهما حقيقيا، يجب أن يفهم في أبعاده المختلفة، وينبغي أن يؤخذ كل تركيب فيه على حده، وهذا ما يكشف عن تعقيد الميدان.

هذه الورقة عبارة عن محاولة لتحليل واقع البحث الأنثروبولوجي في الجزائر من خلال تجربة ميدانية أثناء إعدادنا لرسالة الماجستير الموسومة بـ: الخيمة أدواتها وقيمها الرمزية بين الأمس واليوم (دراسة أنثروبولوجية في الزيبان والأوراس) تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد بورايو. وقد ساعدنا كثيرا في العمل الميداني الدكتور عبد الرحمن موساوي أحد الأنثروبولوجيين البارزين على مستوى البحر الأبيض المتوسط. وقد كان لنا الشرف عندما عينه المجلس العلمي لجامعة عباس لغرور

كأحد أعضاء لجنة المناقشة، الأمر الذي وفر لنا فرصة لتسجيل ملاحظاته حول عملنا الميداني وقد ضمنا هذه الملاحظات في متن هذه الورقة التي سنقدمها في شكل نقد إبستمولوجي لأساسيات البحث الأنثروبولوجي، بعد تقديم صورة عن حالة الأنثروبولوجيا في الجزائر على وجه الخصوص.

الإشكالية

بمجرد أن يصل الباحث إلى موقع الدراسة يشعر بالفارق الكبير بين عمله في الكتب والأوراق وبين تعامله المباشر مع الأشخاص والأشياء، بين تصوراته وتوقعاته لما يمكن أن يكون وبين ملاحظاته الواقعية لما هو كائن بالفعل، بين خطة الدراسة كما رسمها وحدد خطواتها وبين مقدرته على تنفيذ ما خطط له في ضوء المتغيرات القائمة. فالعمل الحقلية مرحلة جديدة في حياة الباحث يساعد الاستعداد الجيد لها على نجاحها، ولكن فيما تكمن عوامل النجاح؟ هل في قراءات الباحث وإطلاعه الواسعة وإحاطته بإحاطة نظرية بموضوع بحثه أم أن عوامل النجاح تكمن في قيام الباحث بدوره بالصورة المناسبة أثناء العمل الحقلية وتميزه بالروح العلمية التي يستلزمها العمل العلمي كما يقول غاستون باشلار؟

إن العمل العلمي في الحقل من الناحية الأنثروبولوجية يفرض على الباحث لحظة وصوله إليه أن يشارك في حياة المجتمع، وتندرج هذه المشاركة بمرور الزمن، وتتغير مواقف الأهالي تجاهه، فتسير من الحذر والارتياح إلى القبول والتعاون، حتى يصبح وجود الباحث أمرا طبيعيا بينهم فيتصرفون أمامه ويتحدثون معه بتلقائية وكأنه واحد منهم، ويشعر هو أيضا بأنه قد ازداد فهما لهم ومعرفة بتفصيلات حياتهم، كما يشعر بأنه أقدر على إدراك ما وراء الكلمات والعبارات ومظاهر السلوك من معان خفية.

هذا التفاعل الناجح بين الباحث وأعضاء المجتمع لا يتحقق مهما كانت القدرة العلمية للباحث ما لم يلتزم بأخلاقيات العمل الحقلية التي تحميه وتعطي الموضوعية لعمله وبحته، فمواقف العداء قد تجعل من دراسته مجرد محاولات عقيمة لا تصل إلا إلى بيانات تافهة أو كاذبة، كما تحمي أفراد المجتمع من أنانية الباحث ونظرته الضيقة في حدود مصلحته الخاصة.

واقع الأنثروبولوجيا قبل الاستقلال

إذا أردنا الحديث عن تاريخ الأنثروبولوجيا في الجزائر، فإننا نعيد ما قدمه مولود معمري الذي يميز ثلاث حقبة: الأولى، تلك التي سماها الرائدة، و هي عصر الحملات العسكرية. الأنثروبولوجيا حينئذ كانت عبارة عن وقائع لضباط عسكريين الذين كان مهمهم اكتشاف الميدان و إنتاج مونوجرافيات **Monographiques** عن الأقاليم والسكان الذين يقطنونها. الحقبة الثانية: هي فترة الإداريين. و لم يكن همها الوحيد إحصاء السكان ووصف بعض عاداتهم. بل دراسة النظم التي تؤسس للروابط الاجتماعية (كالزوايا مثلا). وأثناء تلك الفترة رمت (الانثولوجيا الاستعمارية) قواعدها الأولى بدء بالتخلص من الأنثروبولوجيا الفيزيائية **Anthropologie Physique** ومن ثم بدأت تظهر مواضيع لها علاقة مع النظام الاجتماعي، المعتقدات و النظم القانونية والدينية.

الفترة الثالثة هي فترة الجامعيين. ظهرت في نهاية القرن 19 مع الأساتذة الجامعيين الذين خلفوا العسكريين: نخبة من الأساتذة مختصين في القانون قاموا بمساءلة معاني و شفرات و طرق تشريعات الأهالي، بينما أساتذة اللسانيات درسوا اللهجات و اللغات العامية.... و تجدر الإشارة هنا إلى أن النزوات السياسية متواجدة بدرجة أقل أو أكثر في الأبحاث.²

إن الإطار التاريخي للاستعمار سوف يشجع إنتاج فكر جديد موجه إلى معرفة الشعوب المهيمن عليها. هواة، عسكريين أو إداريين سيحاولون فهم التنظيم الاجتماعي والروحي للسكان. وبعد ذلك أخذ زمام أمور الأبحاث نخبة من العلماء الذين تركوا لنا في الحقيقة أبحاثا ذات قيمة عالية. إذا أردنا فحص أدبيات الاثنولوجيا في الحقبة الاستعمارية فإن القبائل و بالأخص البربر أخذوا حصة الأسد في انشغالات العصر. و كان التاريخ الاثنولوجي لتلك الفترة حافلا بالأسماء مثل

الجنرال⁴ Daumas Eugène و Louis Mari Rinn.....الخ³ Hanoteau

ولما تمت تسوية المسائل المورفولوجية الاجتماعية و كذلك اللهجات المحلية ووصف وتحديد الأقاليم، جاء دور المعتقدات، وكانت جلها تتسم بصفة الاستشراق Orientalisme و كان يجب الانتظار حتى سنة 1925 لمشاهدة جامعيين من أمثال Thérèse Rivière⁵ و Germaine Tillion⁶ و Jeane Jouin وآخرون.

إن كاتبة «الحريم و أبناء العمومة»⁷ Le harem et les cousins تأبعت محاضرات «مارسال موس» قبل أن تستغرق أربع سنوات في الأوراس بالجزائر. و بعد مرورها على السجون النازية تعود إلى الجزائر في مهمة رسمية سنة 1950. التقارير التي كتبتها لم تكن إطلاقا مجاملة للإدارة الاستعمارية. إن «G. Tillion» ترمز إلى الالتزام الفكري وكذلك إلى القطيعة الاستيمولوجية والتي من خلالها أسست لنظرة جديدة و حقبة جديدة للاثنولوجيا الاستعمارية.

و في منحى آخر فإن «Jacques Berque» الذي يعتبر من الوجوه البارزة في

حقل الدراسات المغاربية. و من خلال كتابه الكبير (البناءات الاجتماعية في أعالي الأطلس) (les

(structures sociales du haut atlas) و الذي من خلاله تبين بوضوح

(الأنثروبولوجيا التاريخية). إن أعماله الأولى حول المنهج القانوني المغربي، حول قانون الأعراف، حول العلاقة بين العادات البربرية والعادات الإسلامية قامت بإرساء لبنات (الأنثروبولوجيا المغربية). وكان بحق ملهم للأنثروبولوجيين المغاربة في نهاية الاستعمار.

أعمال «Bourdieu»⁸ تضيف زحما علميا كبيرا للبعد العلمي للأنثروبولوجيا بالكشف عن المنطق الذي يحدد المجتمع الجزائري. كل هذه الأسماء تحولت إلى معالم في هذا العلم، و للأسف فإنهم لم ينصفوا و لم يعطوا المكانة اللائقة بهم حتى أنهم و صفوا جورا بانتمائهم إلى الحقبة الاستعمارية للأنثروبولوجيا.

واقع الأنثروبولوجيا بعد الاستقلال

وفي مقال لـ«عبد الرحمن موساوي» تحت عنوان «La pratique de l'anthropologie en Algérie» يرى أنه إذا كان علم الاجتماع قد تم تبنيه منذ الإستقلال من قبل الجامعة الجزائرية تحت غيات وضعه مشروع المجتمع، فإن الأنثروبولوجيا لم تعرف نفس الإهتمام أبدا. متهمة بأنها خدمت المشروع الإستعماري، فهي قد عاشت نكسة رسمية منذ المؤتمر الخامس والعشرين لعلم الاجتماع الذي انعقد سنة 1974 في العاصمة الجزائرية. إن مثل هذه اللامبالاة يمكن أن تبدو كنتيجة منطقية للشعور والحس الوطني الذي طور من طرف حزب جبهة التحرير الوطني آنذا. وبالتالي لم يحدث شيء . إن التناقض بدأ مع نشأة الجامعات اليسارية وعن طريق قرار من وزير شيوعي الذي ألصق تهمة للأنثروبولوجيا على أنها علم استعماري، وقد تحملت

الإثنولوجيا الإستعمارية ذلك أكثر، إذ بدأت تلعب دورا مهما في خدمة القضية البربرية. ويكون علم الاجتماع قد تم تنبيه إذن ليس لفضائله الخاصة فحسب، وإنما للإعتقاد بعذريته السياسية، واعتباره بديلا للإثنولوجيا المقصية. إن أعمال علماء الاجتماع الجزائريون يجب أن تكون وقتئذ ليس في خدمة الحقيقة الاجتماعية، لكن في مساعدة الدولة للقيام بمشاريع التنمية وبناء الوحدة الوطنية. وعلى أية حال إن الذي تطلبه الجزائر المستقلة من علم الاجتماع هو لعب اتجاه الدولة الوطنية نفس الدور الذي لعبته الإثنولوجيا اتجاه المشروع الإستعماري. في الجامعات تحولت معاهد العلوم الاجتماعية إلى أروقة لخدمة الإيديولوجية، التمهيد... أجيال من الطلبة الذين ينعتون أنفسهم قليلا أو كثيرا في معظمهم بالتيار اليساري. ومحكمة الإثنولوجيا الإستعمارية، فإننا لا نحاكم فحسب طريقتها، لكننا نحاكم أيضا مكتسباتها ومواضيعها التنبؤية. كل الأسئلة المنسوبة إلى الجماعة الإنسانية، إلى القبيلة، إلى المعتقدات الشعبية سيصبحون مرفوضين كأنهم ينتمون إلى نظام وإلى وقت قد ولى. هذه السياسة الراديكالية، التي تلزم ليس فقط للمناقشة قبل رفض القضية ووجهة النظر، لكن أن تعتبر غير مؤسسة بإنتمائها إلى التاريخ الذي لا يعمل قياسه كما يجب. فالذي يناقض الخطاب الرسمي والأوصاف كانت منذ البداية معتبرة كأكاذيب وهتان. إن رد فعل الإثنولوجيا التي كانت تعتبر كعلم استعماري بميولها، وعلم الاجتماع المطبق منذ سنوات 1970 إلى منتصف سنوات 1980 بالجزائر يكون أيضا ذو ميول.⁹

إن إعادة إدخال الأثنوبولوجيا في الجزائر كعلم أكثر نبلا يعود أساسا إلى أزمة علم الاجتماع في سنوات 1970 و1980 الذي قلص إلى خطاب يتبع الإنجازات الوطنية. و كان يتطرق

إلى مواضيع عامة: الريف، المؤسسة، الثورة الزراعية متجاهلا الأشخاص و الأفراد أو الفاعلين الذين يحملون هذه الديناميات. وكان ذلك إيذانا بظهور أو إعادة ظهور الأنثروبولوجيا.

في خضم التجاذب السياسي والاجتماعي والفكري، فإن إعادة ميلاد الأنثروبولوجيا في الجزائر يعود أيضا إلى الظروف المحلية الخاصة. إن علم الاجتماع الذي عزف عن دراسة الحقل الديني ترك فراغات كبيرة في الوسط الاجتماعي الذي أعاد استثمار الحقل الديني بطريقة فيها نوع من الإنتقام و كان مهمهم الوحيد إثبات (لماديين) الأمس بان الروح يعلو عن المادة وأن روح الشعب يتموقع في قيمه الروحية.

وهناك أيضا الجانب السياسي. إن الدين إذا اعتبرناه بأنه يكون اللحمة الأساسية للمجتمع فإنه الوحيد الذي يمكن أن يثبت ويؤكد الوحدة الوطنية التي لم يستطع الفكر الاشتراكي إرساءها. و على هذا الأساس فإن فشل مشروع المجتمع أعطى الفرصة للأنثروبولوجيا للعودة إلى مسائل تعتبر من قبل طابوهات.

لا يخفى على أحد أن تخصص الأنثروبولوجيا فتي في الجامعة الجزائرية، وتسعى بعض الجمعيات، ومخابر البحث العلمي، وكذا بعض الجامعات والمراكز الجامعية إلى تأصيل وترسيخ هذا التخصص الذي تأخرت الجامعة الجزائرية على فتحه، على غرار بعض الجامعات العربية. لقد كانت

البداية مع المركز الجزائري للبحوث الأنثروبولوجية وما قبل التاريخ والإثنوغرافيا (C.A.R.A.P.E) سنة 1955، وأصبح في 1964 يسمى بـ: مركز البحوث الأنثروبولوجية وما قبل التاريخ والإثنوغرافيا (C.R.A.P.E) ، قبل أن يلحق التراث ومختلف الأنشطة سنة 1984 بالمركز الوطني

وفي عام 2003 تحول (C.N.E.H) إلى مؤسسة عمومية ذات طابع علمي تكنولوجي، تسمى بـ: المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ.(C.N.R.P.A.H) أنشطة هذا المركز كما هو مبين في قانونه الأساسي تتعلق بالبحث في المجالات الثقافية وتفاعل الإنسان مع بيئاته المختلفة منذ عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا. فالأمر يتعلق ببحوث ميداني تمر بعدة مراحل: من التنقيب وتجميع المعلومات إلى اختبارها، والبعثات الميدانية متعددة التخصصات تشمل: الأنثروبولوجيا، ما قبل التاريخ، وغيرها من التخصصات الأخرى وبالتعاون مع المصورين ومختبرات تقنية. وقد نشر المركز مختلف أعماله ونتائج دراساته عبر منشورات خاصة به مثل **Lybica** ومجلة القصص والتاريخ وأخرى تسمى الإنسان، كما قام بنشر بحثه في مجالات ودوريات دولية. وللمركز عدة مخابر للبحث من ضمنها مخابر تضطلع بالبحوث ذات الطابع الأنثروبولوجي، كما يحتوي المركز مكتبة غنية بكتب ودوريات علمية وأرشيف كبير يحتوي على مادة إثنوغرافية لا يستهان بها.

لكن الفضاءات الجامعية لم تعر الإهتمام لمثل هذه التخصصات، إذ كانت البداية الحقيقية في بعض الجامعات كجامعة الجزائر التي تم بها فتح تخصص الأدب الشعبي، الذي يتناول جانب كبير من الثقافة الشعبية الحية والمعاشة، كما تم فتح تخصص الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان وكانت الأنثروبولوجيا أحد فروع هذا التخصص، وجاء مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC) ليفتح أفاق إستنبات هذا التخصص في الجامعة الجزائرية ببحوث ميدانية وملتقيات ومنشورات غزت المكتبات الجزائرية مثل مجلة إنسانيات.

وبالفعل ناضل العديد من الأساتذة وبذلوا قصارى جهودهم للبحث عن الأرضية المناسبة لنمو هذا العلم في البيئة الجزائرية فكانت جامعة منتوري بقسنطينة السباقة إلى ذلك بشكل رسمي وذلك بتكوين دفعة فيما بعد التدرج تخصص أنثروبولوجيا، لكنها بداية اصطدمت ببعض العوائق الإدارية، فكان هنالك تذبذبا في عملية تكوينها وتأطيرها.

إن سردنا لكرونولوجيا التأسيس للأنثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية للدلالة على أن هذا التخصص يحتاج إلى جهود كبيرة وتوضيحات غالية، لما يعانيه من تهميش وسوء الفهم، ونقص في التوثيق والتأليف والنشر. وللدلالة أيضا على أن فهم الإنسان في مختلف أبعاده الاجتماعية والتاريخية والنفسية والسياسية والاقتصادية... إنما يتوقف على الفهم الأنثروبولوجي، فلا برامج التنمية ولا أي مشروع من المشاريع الاجتماعية ترسي قواعدها دون العمل على فهم المجتمع الذي توجه إليه.

تحليل إستمولوجي لتجربة ميدانية

لانتطاعات الأولية

تؤكد مارغريت ميد على وجب البدء في العمل فور الوصول إلى حقل الدراسة، ذلك أن الانتطاعات الأولية مفيدة من حيث أنها شيء لا يتكرر أبدا، لذا ينبغي تسجيل هذه الانتطاعات الأولية. تقول الدكتورة فتيحة محمد إبراهيم: «ومهما يكن الأمر فإن الشعور بأن كل شيء في مجتمع البحث جديد ومثير للتساؤل يفيد الباحث كثيرا»¹⁰ لأنه إذا سيطرت عليه فكرة أنه يعرف جيدا ما يراه فسوف يفوته الكثير مما ينبغي أن يلاحظه ويسجله.

إن العمل الرئيسي الذي ينبغي على الباحث القيام به خلال الأيام الأولى للدراسة هو العمل على التعود مع الظروف الجديدة، وإقامة جسور الثقة بينه وبين أهالي المنطقة، ولا يجب التأخر عن حضور المناسبات التي يجتمع خلالها الأفراد كالحفلات وإقامة الشعائر وقضاء أوقات الفراغ وممارسة الأنشطة العامة، وإذا أتاحت للباحث فرصة زيارة الأسر فسوف تكون فرصة طيبة لملاحظة الكثير من عادات وتقليد المقابلة والضيافة، وتقديم أو قبول الهدايا، وأساليب المخاطبة والتحية والوداع، وكيفية تعامل أطراف الأسرة بعضهم مع بعض، إضافة إلى التكوين الداخلي للمتر، وغير ذلك مما ينبغي أن يلاحظه الباحث بصورة تبدو طبيعية للآخرين.

وخلال هذه الفترة أيضا يسجل الباحث ملاحظاته عن روتين الحياة اليومية لدى الأهالي، فذلك يفيد في اختيار الموعد المناسب لملاحظة نشاط معين أو مقابلة أحد الإخباريين أو الالتقاء بالمجموعات، وخلال جمع البيانات يتعرف الباحث على طريقة الأهالي في حساب تواريخ الميلاد إما بالصورة العادية أو بربطها بأحداث ووقائع معينة أو بغير ذلك، كذلك نوع استجاباتهم عند السؤال عن الذكور وعن الإناث وعند ذكر أسماء النساء، وأيضا ملامح التنظيم الاجتماعي للأسرة وأنماط الإقامة.

مشكلات الدراسة المبكرة

لابد أن تواجه الباحث بعض المشكلات في الفترة المبكرة من دراسته الحقلية، بعضها يتعلق بقدرته على التكيف مع الظروف الجديدة المادية والاجتماعية، مثال ذلك أننا كنا في مجموعة من الطلبة نتلقى تدريبات ميدانية في الصحراء لدى بعض القبائل البدوية في ولاية الوادي، فلم يستطع الكثير منا

التكيف والتلاؤم مع تلك الظروف التي تحيط بالبيئة الصحراوية، أو تلك التي تطبع الحياة الاجتماعية للبدو، وكان من آثار ذلك شعورنا بما تسميه الأستاذة فتيحة محمد ابراهيم بـ «الصدمة الثقافية»¹¹

LE CHOC CULTUREL الناتجة عن انتقال الباحث فجأة من محيط ثقافي تعود عليه إلى محيط آخر يختلف عنه اختلافا كبيرا، الأمر الذي قد يؤدي إلى الشعور بالأس في المرحلة الأولى من الدراسة. ومع إقامة الباحث في منطقة البحث واستمرار ملاحظته لما يجري حوله وتعلمه لغة الأهالي فإنه سيتدرج في فهم كل ما يحيط به، وتصبح الظواهر الغامضة ذات معنى، كما يصبح قادرا على فهم المجتمع الجديد بطريقة لم تحدث له حتى في المجتمع الذي نشأ فيه.

لكن ذلك لا يمنع الباحث من الوقوع تحت وطأة مشاعر «التمركز العرقي»¹² Ethnocentrisme فبعض الباحثين خاصة المبتدئين تشغلهم عملية المقارنة بين الثقافة التي ينتمون إليها ويعتقدون أنها بأنماطها السلوكية تمثل ما هو طبيعي بالنسبة للإنسان، وبين الثقافة التي ينتقلون إليها والتي تبدو في نظرهم غير طبيعية وغير معقولة، فعندما كنا بين قبائل بدو الصحراء لوصف بعض مظاهر حياتها وصفا اثنوغرافيا وقع الكثير منا في أوصاف تقويمية تصف المجتمع الذي تجرى فيه التديريبات بالتخلف والوحشية والبدائية... وطبيعي أن مثل هذه المواقف لدى الباحث الحفلي تعطل رؤيته الموضوعية والحيادية لكل ما يجري حوله، وتؤثر على أسلوبه في جمع البيانات، كما يعوق ذلك قيام علاقات وثيقة بينه وبين الإخباريين والأهالي الذين يتعامل معهم.

على عكس مشاعر التمرکز العرقي التي تمتلك بعض الباحثين يتمادى البعض الآخر في التحيز للمجتمع الجديد، وهو ما تسميه الأستاذة فتيحة محمد ابراهيم بـ «الرؤية الرومانسية للمجتمع

البحث»¹³ ويكون ذلك نتيجة عوامل متعددة قد ترجع إلى شعور الباحث بالغبطة لإتاحة هذه الفرصة التي لم تتح لغيره، أو لنفوره السابق من أسلوب الحياة في المجتمع الذي كان يعيش في نطاقه، أو الانتقال عند إجراء الدراسة إلى مجتمع أكثر تقدما من المجتمع الذي ينتمي إليه أو التطرف في موقف الاستغراق في الثقافة الأخرى من أجل فهم رؤية الأهالي للعالم المحيط بهم.

هذه المواقف تمثل بعض مشكلات العلاقة الاجتماعية بين الباحث ومجتمع البحث، وهي تتبع أساسا من عوامل تتصل بالباحث نفسه، وهناك أيضا بعض المشكلات في هذه العلاقة تتبع من جانب الأهالي تجاه الباحث.

كما هو واقعنا هو أن العمل الصحفي والرسمي والسلطوي رسخ تقاليد بروتوكولية خاصة، إذ كلما استعملت وسائل التسجيل والتصوير إلا وظن المبحوث أن وراء ذلك سلطة، أو أمر آخر قد يضره أكثر مما ينفعه، أو أن هؤلاء يعطونهم القيمة وقت الحاجة فقط... وبذلك يبدي سلوكا خاصا يحتاج فيه من كل سؤال يوجه إليه، أو يُسْتَجَوَّبُ من خلاله. وأكثر من ذلك ترسخت لدى الناس قناعة يعبر عنها المثل الشعبي: «أحفظ الميم تحفظك»¹⁴، فهذا يعبر عن الرفض التام للباحث وللتعاون معه لاعتقاد الأهالي بأنه جاسوس للسلطات، أو أنه يريد بهم شرا أو لوجود تجربة سابقة لهم مع أحد أو بعض الباحثين تكون قد سببت لهم متاعب، أو لوجود أنشطة غير قانونية تجري في مجتمع الدراسة، أو لصفات معينة تخص الباحث يزدريها المجتمع.

وقد يتخذ الأهالي موقف الحذر في التعامل مع الباحث، ويكون هذا الموقف موقفا عاديا في بداية العمل الحقلية، لكنه يملك أن يستمر عندما يفشل الباحث في إزالة حاجز عدم الثقة بالتدريج بينه

وبين الأهالي، وبالتالي يتحول إلى عائق يعيق العمل العلمي، وينقص من فاعلية الدراسة، فإذا شاهد الناس الباحث في صحة الضابط المسئول عن الأمن في المنطقة بدء حضوره فإن ذلك قد يثير لديهم بعض الحذر من ناحيته والذي يمكن أن يختفي إذا اندمج معهم في حياتهم العادية، لكن إذا استمرت مشاهدتهم له في صحة هذا الضابط طوال فترة الدراسة فإن موقف الحذر والارتياح يستمر رغم التظاهر بالتعاون. يتحدث ايفتر بريتشارد عن علاقة الباحث بالأهالي فيقول: «من الواضح أنه لن يستطيع أن يوطد أواصر الصداقة معهم إلا إذا أفلح في الاندماج في المجتمع بحيث يصبح - ولو إلى حد معين - فيه»¹⁵

فترة العمل الميداني المتواصل

إذا كانت فترة البحث المبكرة تستهدف التعرف على مجتمع البحث بكل مكوناته البشرية والمادية، وإقامة الجسور والروابط بين الباحث والأهالي أو أعضاء مجتمع البحث والدراسة، والتمهيد لدراسة الموضوع الأساسي، فإن الفترة التالية هي فترة العمل المتواصل التي يشعر الباحث خلالها بأن كل يوم فيها محسوب عليه أو كأنه آخر يوم في عملية جمع البيانات والمعلومات. هذا ما يدفعه إلى الشعور بالقلق والاضطراب وتعجيل الكثير مما يمكن تأجيله، أو تأجيل الكثير مما يمكن تعجيله، فتتحول رزنامة الشهر رزنامة أسبوع، ورزنامة الأسبوع إلى رزنامة الشهر... وهكذا إلى درجة التعرض للإرهاك المبكر وربما التعرض للمرض، أو التعرض لأسباب أخرى مشقة تبعده عن ميدان البحث نهائياً.

إن تحقيق النموذج المثالي في الدراسة الميدانية مجرد وهم لا يعرفه إلا الضالعون في العمل الميداني وتكونت لديهم خبرة طويلة الأمد، إذ يؤدي ذلك إلى البدء بالحماس والجري وراء كل شيء

يظن الباحث أن له علاقة بموضوع بحثه، فيبدأ بلم كمية كبيرة من الكتب والمقالات أو المعطيات الرقمية أملا في أن يجد فيها عند انعطاف فقرة أو منحى، الضوء الذي سيتيح له بشكل صحيح وبطريقة مرضية هدف العمل الذي يتمنى القيام به وموضوعه، فمثل هذا العمل يفضي لا محالة إلى الإحباط لأن وفرة المعلومات المتنافرة تؤدي في النهاية إلى تشوش الأفكار.

سيتوجب إذن كما يقول ريمون كيفي: «العودة إلى الوراء لتتعلم من جديد مبادرة التفكير لا مباشرة الإلتزام، وأن نقرأ في العمق قليلا من النصوص المختارة بعناية، وأن نفسر بفطنة بعض المعطيات الإحصائية المعبرة بوجه خاص»¹⁶ فالهروب إلى الأمام ليس عديم النفع فقط بل هو مضر وكثير هم الباحثون أو الطلاب الذين يتخلون عن مشروعات عملهم عند انتهاء المرحلة الدراسية، أو عن إكمال أطروحتهم لأنهم بدأوا فيها على هذا النحو.

ثم إن تحقيق النموذج المثالي يدفع الباحث أو الطالب إلى تكثيف عمله خلال المراحل الأولى من البحث، فيعمل في اليوم الواحد أكثر من المقياس المعمول به على الرغم من أن كل الشواهد والقرائن تدل على استحالة ذلك، لقد تعرض أحد الباحثين لهذا الموقف في بدأ دراسته وكتب عنه يقول: «خلال الأسبوع الأول من البحث قضيت ما يقرب من التسع أو العشر ساعات يوميا في الحقل بالإضافة إلى ما يقرب من هذا الوقت في تسجيل البيانات التي حصلت عليها، وهذه الخطوة الجنونية كانت دون شك بتأثير مشاعر القلق التي سيطرت علي في بدء الدراسة، ولكن خطواتي بدأت بعد ذلك في التباطؤ تدريجيا، ومع هذا ظلت طوال ثمانية أشهر أشعر بالرغبة في تحقيق النموذج الذي قالوا لي عنه وهو العمل لمدة ستة عشر ساعة يوميا، وظل هذا الوهم مسيطرا علي على الرغم من كل

الشواهد التي كانت تشير إلى تعذر ذلك، وأخيرا تحققت من أن هذا النموذج يمثل أحد الأوهام المصاحبة لممارسة العمل الحقلي»¹⁷ فسرعان ما يأخذ هذا الحماس في الاختفاء شيئا فشيئا، والخطوات تتباطأ تدريجيا حتى يغدو البحث عبئا على الباحث أو عاملا من عوامل إثارة القلق لديه متى تذكره أو شعر بضرورة إتمامه في غياب المحفزات التي بدأ بها.

وضع الملاحظة بالمشاركة على المحك الإستمولوجي

تعتبر الملاحظة بالمشاركة أفضل وسيلة منهجية مفضلة في العلوم الإنسانية والإجتماعية خاصة علمي الأنثروبولوجيا و الإجتماع، يقول بواس: «إنه لفهم ثقافة المجتمع لا بد من العيش في المجتمع، ومعرفة لغة الأهالي»¹⁸، ومن تعريفها المنطقي تظهر على أنها تجربة مزدوجة: تجربة الآخرين وتجربة الذات. إنها خلق اصطناعي لوضع اجتماعي مؤقت لأول وهلة، حتى ولو وجب أن يكون طويل الأمد، حيث نتردد فيه على أناس ليس بيننا وبينهم أي علاقة مسبقة، وحتى ولو لم يطلبوا منا أن نأتي إليهم ونهتم بهم، ناهيك عن الإقامة بينهم بشكل ثابت. يجب على الإثنولوجي الميداني أن يخلق لنفسه دورا محليا أو خارجيا يجعل من سيئة التطفل حسنة واتصالا مرفوضا يهدف إلى الاندماج في علاقة عادية مع الجماعة.

التساؤل الشرعي الأول يركز على طبيعة الملاحظة بالمشاركة، وعلى حقيقة إقامة الإثنولوجي التجريبية واليومية والتقنية. إن الأنثروبولوجي «غريب وصديق» في الوقت نفسه، ربما يتعلق الأمر «بغريب محترف»، يقول جان كوبان: «من البداية لا يستطيع الإثنولوجي الميداني، رغم كل كفاءاته، أن يمحو عيبه الأساسي: هو أنه أجنبي وسيبقى أجنبيا»¹⁹

إذن من الطبيعي جدا أن يبدأ الباحث الحقلّي بموقف الغريب عن المجتمع موضع البحث وأن يعامله الأهالي بهذه الصفة، ويتوقف عليه بعد ذلك التغلب على العوامل التي تمثل حاجزا بينه وبينهم. ولكن ماهي أنجع السبل التي تحقق له ذلك؟ نعم، إننا نجد كتب منهجية البحث الأنثروبولوجي تطلّعنا نظريا على مختلف الطرق التي تحقق للباحث خاصة المبتدئ الإندماج مع مجتمع الدراسة، كما نجد في تجارب كبار الأنثروبولوجيين سندا مهما يستطيع أن يحاكيه لأجل التكيف والمواءمة مع حقل الدراسة. ولكن، رغم اقتداء الباحث بخبرات كبار الأنثروبولوجيين التي يحتفظ بها الأدب الأنثروبولوجي، ورغم إلمامه بلغة ذلك المجتمع، واكتسابه لأسلوبه في الحياة اليومية... إلا أن أعضاء المجتمع وأفراده لا زالوا يعتبرونه غريبا ولا يعتبرونه شريكا في حياتهم، ولا صديقا لهم!؟

يصور مالفينوفسكي موقف الإغتراب الذي يشعر به الباحث في بدء دراسته تصويرا جيدا في دراسته عن التروبرياندي فيقول: « تخيل نفسك وقد وجدت أنك محاط فجأة بامتعتك على الساحل بالقرب من إحدى قرى المناطق الحارة بينما يتبعد القارب الذي أقلك بعيدا عن أنظارك، وتخيل أكثر من ذلك أنك باحث مبتدئ ليس لديك خبرة سابقة، ومجرد من أي دليل يرشدك أو شخص يعينك، هذا بالضبط ما واجهته في محاولتي الأولى في العمل الحقلّي على الساحل الجنوبي لغينيا الجديدة، ولا زلت أذكر جيدا الزيارات الطويلة التي كنت أقوم بها للقري خلال الأسابيع الأولى، ومشاعر الإحباط واليأس من العديد من المحاولات العنيدة، والتي فشلت مع ذلك في أن تقربني من الأهالي أو تدفعهم

لإمدادي بأي شيء»²⁰

فالمشكلة الرئيسية التي تواجه الباحث الحقلّي في بدء دراسته هي كيفية الدخول إلى مجتمع البحث، خاصة وأن الباحث سيكشف عن دوره كباحث بالنسبة لأفراد المجتمع، ربما يساعده هذا، لكن هل يثق الأهل فيما يصرح به خاصة وأن المجتمع مر بظروف وعوامل جعلته ينغلق على ذاته أكثر فأكثر؟ إننا نجد في المجتمع الجزائري مثالا لذلك، لقد جعلت منه الأحداث التي مر بها مجتمعا يتجه نحو الانغلاق والتشدد وعدم التسامح في أمور كثيرة خاصة تلك التي تتعلق بأمنه، فيرى في كل استجواب أو تحقيق تحديدا لحياته، فمهما كانت براعة الباحث في ابتكار الوسائل فإن المجتمع قد اتخذ قرارا مطلقا بأن لا يعطي ثقته لأحد، لقد اقتنع بالفكرة الديكارتية التي تقول: « من خدعك مرة يخدعك مرات ومرات ».

إن حل الكتب التي تناولت منهجية البحث الأنثروبولوجي تتحدث على أن الثقة المتبادلة بين الباحث ومجتمع الدراسة، تتوقف على عدة جوانب بعضها يتصل بقدرات الباحث نفسه، وبعضها يتصل بطبيعة مجتمع الدراسة، وبعضها يتصل بطبيعة الموضوع؛ فإذا كان لزاما على الباحث المتدرب أو المبتدئ صقل قدراته وبذل الجهد من أجل التكوين واكتساب الخبرة، فإن طبيعة مجتمع الدراسة كالمجتمع الجزائري قد لا تؤثر على سير عملية البحث فقط، بل قد يتعدى تأثير المجتمع حتى إلى اختيار الموضوع ذاته، إذ نجد الكثير من الموضوعات التي وضعت أمامها خطوط حمراء، لا يمكن حتى التفكير فيها، فكيف بتطبيق الملاحظة بالمشاركة أثناء دراستها؟ أما عن موضوع الدراسة أو البحث، فإن قدرة الباحث تتمثل في مدى استيعابه لأبعاده وأسلوب معالجته من خلال الوسائل المناسبة، وهنا يطرح

السؤال التالي: ماهي الوسائل والأساليب المنهجية الملائمة لإجراء الدراسة وتحليل البيانات التي تم تجميعها من الميدان؟

ونظرا لأن الباحث الحقلية لا يمكن أن يكون موجودا في كل مكان وفي كل وقت، فإننا نتساءل: كيف ستكون ملاحظته والحالة هذه؟ بطبيعة الحال الجواب لا يتعدى أن تكون الملاحظة انتقائية إلى حد كبير، وهنا يتولد سؤال آخر: ماذا ينتقي وماذا يترك؟ إن بعض المواقف والأحداث تفرض نفسها عليه، وإذا فاتته ملاحظتها في وقتها فسوف تضيق منه فرصة يصعب أو يستحيل تعويضها، ربما يركز الباحث على الجوانب التي تهم موضوعه أو لها صلة مباشرة بمجال الدراسة التي يجريها، ولكن ألا يشعر الباحث وهو بصدد الاختيار والانتقاء بالقلق والتوتر حول ما إذا كان يقوم بالملاحظة المناسبة في الوقت المناسب؟ ألا يشعر بالندم عندما يكتشف بعد فوات الأوان بأن ما لم يقع عليه اختياره من العناصر هو على قدر كبير من الأهمية؟ فما هو الحل أمام هذه الدوامة من التساؤلات التي تضع عملية الملاحظة بالمشاركة على محك النقد الإستمولوجي؟

الإخباريون

بطبيعة الحال أن نجاح الدراسة الحقلية يتوقف إلى حد بعيد على حسن اختيار الإخباريين والتعاون معهم، فهم يمثلون حلقة الاتصال بين الباحث والمجتمع طوال فترة الدراسة، ويعرف جريك بايلي الإخباريين بالقول: « إن الأشخاص الذين يسمحون له بالقيام بملاحظة سلوكياتهم، يسمون الخبراء أو الإخباريين »²¹، أجل قد يقدم أحد الإخباريين عوناً كبيراً للباحث، ولكن هل يكون لكل إخبار يقع الإختيار عليه نفس الإهتمام بموضوع الذي يقوم الباحث الحقلية بدراسته؟ ألم تعرف النساء

عن بعض الموضوعات أكثر مما يعرفه الرجال؟ والعكس صحيح بالطبع، ألم يكن كبار السن أكثر معرفة وإحاطة بالأساطير، والخرافات، والتاريخ، والمشايخ، والكهنة وغيرهم؟ لماذا يكون رجال الدين أكثر عرفانا وخبرة من غيرهم في مجال المعتقدات والأديان؟ لماذا يكون غير مسموح للآخرين في بعض الأحيان معرفة الكثير من المعلومات ذات الصلة بهذه المجالات؟

إذن من بين الأساسيات في البحث الأنثروبولوجي حسب كبار الأنثروبولوجيين يتمثل في استخدام إخباريين رئيسيين من هذا النوع كمصادر للمعلومات على ثقافتهم، فالناس يميزون فيما بينهم بالنسبة إلى معرفتهم، وتفسيراتهم لنظمهم الاجتماعية والثقافية، كما يختلف الناس في اهتماماتهم وقدراتهم على التعبير اللغوي، وبالتالي لا يجد الأنثروبولوجي إلا عددا قليلا من الأفراد يصلحون كإخباريين ملائمين، إن البعض من قدرات الإخباري يكتشفها الباحث ذاته، أثناء تدريبه على تصوير المعلومات الثقافية في الإطار المرجعي الذي يستخدمه الأنثروبولوجي.

يتعلم الإخباري بالتدرج قواعد السلوك في مواجهة الأنثروبولوجي، يقول عبد الله عبد الغني غانم: «لو طال التعامل بينهما فربما يستخدم المفاهيم النظرية الخاصة بالأنثروبولوجي في تحليل ثقافته الخاصة»²²، لكن السؤال الذي يبقى مطروحا هو: إلى أي مدى يبقى الإخباري متفاعلا مع الأنثروبولوجي الذي لعب دورا كبيرا في تدريبه وتعليمه للقيام بدور الشارح لثقافته؟ ما هي طبيعة الموضوعات التي يتجاوب ويتفاعل معها الإخباري أكثر من غيرها؟

لقد قاما "فرانك وروث يونغ" بتحليل فاعلية الإخباري أثناء دراسة أجريها في المكسيك، ووجدوا أن الإخباريين كانوا على مستوى من الثقة والفاعلية في إعطاء معلومات عن موضوعات محددة مثل: هل يوجد مسجد بهذه البلدة؟ هل لديكم طبيب هنا؟ متى وصلت الكهرباء إلى تلك المدينة؟

إن الإخباري يتفاعل مع الموضوعات الخاصة بالجغرافيا الطبيعية والمباني العامة، النظم والأمور النظامية، ثم تواريخ الأحداث الهامة في المجتمع، لكنه يظهر اتفاقاً أقل إذا تعلق الأمر بالأسئلة التقييمية مثل: هل ثمة أي تغير في التمسك بالدين في هذا المجتمع في العشر سنوات الأخيرة؟ أو ما نسبة الناس الذين يؤدون صلاة الصبح؟ عموماً إن الثقة في الإخباريين مسألة احتمالية، ومعظم التأكيدات حول فاعلية الإخباري انصبت على البحوث المسحية على المستوى الكبير، وليس في حالة المواقف التي تستخدم فيها المقابلة المركزة على مدى زمني كبير في مجتمعات صغيرة نسبياً.

ومن الطبيعي أن يميل الباحث إلى هذا الإخباري أو ذاك، ولكن عليه ألا يظهر ذلك وخاصة أمام الإخباريين الرئيسيين، لأن من شأن ذلك هدم كل الثقة التي تعب الباحث في بنائها بينه وبينهم، كما أن عليه أن يعالج بحكمة وصبر المشكلات الناجمة من بعض الإخباريين، فقد يسيء أحدهم معاملة الأهالي أمام الباحث، أو يجب أن يظهر دائماً أمام الآخرين أنه ذو صلة وثيقة بالباحث، أو يهتم بإنقاص قدر الإخباريين الآخرين وما يدلون به من بيانات، وقد يجد الباحث نفسه في بعض الأحيان مضطراً إلى إنهاء علاقته بإخباري معين يكون من شأن استمرار العلاقة معه الإساءة إلى عدد آخر من الإخباريين، وفي بعض الأحيان قد يتطوع الإخباري بالحديث باسم الباحث مع الأهالي وهذا خطأ على الباحث أن يلاحظ ذلك وأن يسارع إلى تنبيهه لعدم التكرار.²³

دور الباحث في مجتمع الدراسة

يميل الأهالي في أي مجتمع محلي إلى تحديد دور معين لأي شخص غريب عليهم، فيعتبرونه مندوبا عن السلطة الرسمية أو عن الضرائب أو الشرطة أو الاستخبارات أو غير ذلك، وقد ينسجون حوله بعض القصص الخيالية عندما يبدو دوره غامضا بالنسبة إليهم، وهذا الميل يمثل عائقا أمام الباحث الحقلّي إذ يمكن أن يؤدي إلى حذر الأهالي من التعامل معه، ولهذا ينبغي أن يبادر خلال الفترة الأولى من الدراسة إلى إقامة جسور الثقة بينه وبينهم. ولكن كيف تبنى جسور الثقة هذه؟ لا يتم ذلك حسب الخبرة الأنثروبولوجية التي تحدث عنها الكثير من الأنثروبولوجيين الذين قاموا ببحوث ميدانية إلا إذا كون الأهالي تصورا يقتنعون به عن سبب وجود الباحث بينهم، ووجدوا إجابة للعديد من الأسئلة التي يطرحونها حول حياته الخاصة، والمقابلات التي يجريها مع البعض منهم، لهذا ينبغي أن يتحاشى الباحث قدر الإمكان إظهار ارتباطه بالموظفين الرسميين، وإقامته الطويلة بينهم لا بد أن تقوم على أساس من الوضوح والثقة المتبادلة، والأفيد من ذلك كما تورد د. فتيحة محمد ابراهيم: «أن يواصل الباحث عمله بأعصاب هادئة وعقلية متفتحة وأفق واسع لأن الزمن هو الذي سيكشف للأهالي حقيقة الدور الذي يقوم به والأدوار الأخرى التي أشيعت عنه»²⁴.

وفي الحالات التي ينتمي فيها الباحث إلى ثقافة غير تلك التي يدرسها يكون هناك دائما مجال للمقارنة لدى الأهالي بينهم وبينه، ومن ثم تكثر الأسئلة الموجهة إليه عما يحدث في هذا الموقف أو ذاك في مجتمعه ويكون عليه أن يجيب عليها بصورة لا تحمل معنى التمرکز العرقي لأن من الممكن أن يكون هذا التمرکز هو الشعور المسيطر لدى الأهالي تجاه غيرهم، ولكن ماذا يكون دور الباحث في مثل هذه

المواقف خاصة عندما يشاهد بعض الممارسات الصحية مثلا التي لا تتفق مع القواعد التي يعرفها؟ هنا تظهر مشكلة الحدود التي ينبغي أن يقف عندها خلال فترة إقامته في مجتمع البحث، هل يكونه من حقه التدخل في مجرى الحياة العادية أو يصبح وجوده عاملا من عوامل التغير الاجتماعي أو التعجيل بحدوث هذا التغير؟

من الواضح أن المهمة العلمية للباحث تفرض عليه عدم التدخل في الحياة العادية لمجتمع البحث، وعدم الخلط بين دوره كملاحظ ودارس للثقافة وبين دور المصلح الاجتماعي، غير أن وجوده في الأحوال العادية ومتابعة الآخرين له طوال فترة الدراسة من شأنه إحداث بعض مظاهر التغير، فهذا شيء يخرج عن نطاق إرادته، فمثلا تورد لنا د. فتيحة محمد إبراهيم بعض الحالات التي يقلد فيها الأهالي سلوكات الباحث فتقول: « صنع توماس وليامز خزانة من أعود البامبو المشطورة إلى نصفين ووضعه فوق سطح منزله في منطقة البحث في إحدى الجزر الأندونيسية لاستقبال مياه الأمطار ثم صلبها في أوعية بدلا من ملء هذه الأوعية من الآبار. وقد لاحظ أن عددا من الأهالي قلده في ذلك، وعند عودته إلى القرية بعد عامين لمواصلة الدراسة لاحظ انتشار هذه الخزانات بصورة أكبر، وكذلك انتشار نصيحته الطبية للأمهات بإعطاء الأطفال المصابين بالإسهال كميات أكبر من الماء المذاب في بعض الملح على فترات لمن حدوث الجفاف»²⁵.

انتهاء فترة الدراسة

إن الباحث الناجح هو الذي يجعل الأهالي يشعرون بالأسى والحزن حين تخين ساعة الفراق، لا شك أنه كان يعكس تجربة حقيقية لمسها بنفسه، فطول فترة إقامة الباحث تجعل وجوده بين الناس

جزءاً من حياتهم المعتادة وخاصة أنهم يجدونه دائماً معهم في أكثر المناسبات الاجتماعية التي تمر بهم سواء كانت سعيدة أو حزينة أو لإنهاء المنازعات أو قضاء أوقات الفراغ أو ممارسة الأنشطة العادية، لهذا فإن الإعلان عن انتهاء الدراسة ينبغي أن يسبقه تمهيد كاف لصالح الفترة الباقية من البحث من ناحية، وكواجب يلتزم به الباحث تجاه الآخرين من ناحية ثانية، وعلى ذلك فإن بإمكانه أن يشير إلى عزمه على العودة لمتابعة الدراسة مرة أخرى إذا كان ينوي بالفعل ذلك، وإذا لم يكن عازماً على ذلك ينبغي أن يؤدي واجبات الوداع بحسب ما يعرفه عن عادات المجتمع وتقاليده في مثل هذه المناسبة، ومن الأمور الشائعة في هذا الصدد زيارة الإخباريين وكل الذين تعاونوا معه خلال الدراسة وتقديم الهدايا لهم أو تبادلها معهم أو إقامة حفل يضم الجميع بهذه المناسبة.

إذن الصورة التي بدأت بها الدراسة الحقلية ينبغي أن تنتهي بها، فكما كان الباحث يبحث الطرق التي يقيم بها جسور الصداقة وزيارة الأهالي والموظفين والقادة الشعبيين الموجودين في المنطقة أو في المكان الذي تتبعه هذه المنطقة، ينبغي أن تختتم الدراسة أيضاً بزيارة هؤلاء لتقديم الشكر لهم على تعاونهم، ومن الضروري أن تستمر المراسلات بين الباحث وبين بعض الأفراد في مجتمع البحث، فهو من ناحية سيكون حريصاً على معرفة أي شيء عن تلك الحياة التي كان يتابع وقعها وأحداثها كل يوم، وهم من ناحيتهم سيشعرون بالرضا لاستمرار علاقتهم بالشخص الذي عاش بينهم كواحد منهم طوال فترة الدراسة.

1. جان كويان، "المسح الإثنولوجي الميداني"، ترجمة جهيدة لاوند، معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد - أربيل - بيروت، الطبعة 01، سنة 2007، ص 7.
2. للتوسع أكثر أنظر: عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري (دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر)، دار القصبة للنشر، الجزائر، سنة 2007، عنصر الإهتمامات الإثنولوجية والأنثروبولوجية (المؤسسة الإستعمارية)، ص 07.
3. Adolphe Hanoteau, **Essai de grammaire kabyle, renfermant les principes de ce langage berbère parlé par les populations du versant nord du Jurjura et spécialement par les Igaouaouen ou Zouaoua**, avec des textes et traductions, suivi de notes et d'une notice sur quelques inscriptions en caractères dits tifinar' et en langue tamacher't, Alger, Bastide, 1858.
4. Daumas Eugène , **Le Sahara algérien études géographiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie**, Paris, Langlois et Leclercq, 1845.
5. Therese Riviere . « **L'Habitation Chez les Ouled Abderrahman Chaouia de l'Aures** », AFRICA: JOURNAL OF THE INTERNATIONAL AFRICAN INSTITUTE, Vol. 11, No. 3 (Jul., 1938), pp. 294-311.
6. Germaine Tillion: «**Il était une fois l'ethnographie**», Éditions du Seuil, 2000.
7. Germaine Tillion, « **Le harem et les cousins** », Éditions du Seuil, Paris 1966.
8. Pierre Bourdieu : « **Sociologie de l'algérie** », 3eme édition mise a jour, collction « que sais-je ? » N°802, Presses universitaires de France, Paris- France, 1970.
9. Abderrahman Moussaoui, « La pratique de l'anthropologie en Algérie », PP 269-270.

10. فتيحة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي نشواني، "مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان"، دار المريخ للنشر، الرياض- المملكة العربية السعودية، 1988، ص 168.
11. نفس المرجع، ص 170.
12. Denys Cuhe "la notion de culture dans les sciences sociales", Casbah editions, alger -1998, p21
13. فتيحة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي نشواني، "مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان"، مرجع سابق، ص 171.
14. هذه العبارة يرددها عامة عندما يشتبه عليهم الأمر، أو عندما تحيط بهم ظروف يتنفها الغموض والإلتباس، فيقولون: «ماشفت»، «ما سمعت»، «ما قلت»، «ما حضرت»... وكثيرا ما تكون مصحوبة بالقسم والخلف.
15. ايفانز برينشارد، "الأنثروبولوجيا الاجتماعية"، ترجمة أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، سنة 1978، ص 106.
16. رمون كيني ولوك فان كبنهود، "دليل الباحث في العلوم الاجتماعية"، تعريب د. يوسف الجباعي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، الطبعة 01، سنة 1998، ص 24-25.
17. فتيحة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي نشواني، "مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان"، مرجع سابق، ص 174.
18. عبد الله عبد الغني غانم، "طرق البحث الأنثروبولوجي"، المكتب الجامعي الحديث- الإسكندرية- مصر، الطبعة 01، سنة 2004، ص 103.
19. جان كويان، "المسح الإثنولوجي الميداني"، مرجع سابق، ص 58.
20. فتيحة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي نشواني، "مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان"، ص 176.
21. عبد الله عبد الغني غانم، "طرق البحث الأنثروبولوجي"، ص 117.
22. نفس المرجع، ص 118.
23. فتيحة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي نشواني، "مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان"، ص 178.
24. المرجع نفسه، ص 182.
25. د. فتيحة محمد ابراهيم ومصطفى حمدي نشواني، "مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان"، ص 183.